Al-Daleel
مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث العقدية
Al-Daleel Institution for Doctrinal Studies

Materialism and the Results of Epistemic Conflictions Between Liberalism and Marxism

Adnan Hashem Al-Husseini
Lecturer of Islamic jurisprudence and philosophy at al-Mustafa International University, Iraq.
E-mail: adnanha2010@gmail.com

Abstract

This study researches two primary materialist trends, Liberalism and Marxism, as far as their formulation, their influence in the realm of thought and epistemology, and the struggle between them in order to take lead in materialism. Liberalism is a product of secularism, which created the pillars of liberalist thought when it included the human into what is called Humanism, which focuses on the human and makes the human being the center and master of the universe without any equal. For them, the universe ultimately serves the human. Opposite to this was the forming of Marxism, which made the society submit to dialectical production and the relations of production under material dialectics and the history of social evolution, which resulted in Communism. The paper concludes that these two methods are incompetent, due to the epistemic inconsistency between them in solving human problems. It was required for the nature of this research to rely on the descriptive-analytical methodology.

Keywords: Materialism, Epistemic Inconsistency, Liberalism, Marxism, Humanism.

Al-Daleel, 2024, Vol. 7, No. 1, PP. 102-122
Received: 10/04/2023; Accepted: 29/05/2023
Publisher: Al-Daleel Institution for Doctrinal Studies
©the author(s)

مؤسسة الدليل
للدراسات والبحوث العقدية
Al-Daleel Institution
for Doctrinal Studies
Al-Daleel الدليل

الرؤية المادية ومالات التدافع المعرفي بين الليبرالية والماركسية

عدنان هاشم الحسيني

مدرّس الفقه والفلسفة الإسلامية في جامعة المصطفى العالمية، العراق.

البريد الإلكتروني: adnanha2010@gmail.com

الخلاصة

يتناول البحث قراءة الاتجاهين الرئيسيين للفكر المادي وهما الاتجاه الليبرالي والاتجاه الماركسي من حيث اسباب النشوء والتاثير في الساحة الفكرية والمعرفية، والصراع بينهما من اجل ريادة الفكر المادي. ان الفكر الليبرالي من منجزات العلمانية التي وفّرت دعائم الفكر الليبرالي حينما ادلجت الانسان ضمن ما يسمى الانسانوية التي تتمركز حول الانسان وتجعله مركز الكون وسيده بلا منازع فالانسان مرجعية الكون النهائية. ومقابل ذلك نشأت الماركسية التي جعلت المجتمع خاضعا لجدلية ادوات الانتاج وعلاقات الانتاج ضمن مادية جدلية وتاريخية في التطور الاجتماعي تنتهي بمرحلة الشيوعية. ويصل البحث الى عدم امكان التقاء هذين الاتجاهين لشدة التنافر المعرفي بينهما في حل المشكلة الانسانية. واقتضت طبيعة البحث اعتماد المنهجين الوصفي والتحليلي.

المفردات الدلالية: الفكر المادي، التدافع المعرفي، الفكر الليبرالي، الفكر الماركسي، الفكر الانساني.

مجلة الدليل، 2024 ، السنة السابعة، العدد الأول، ص. 102 – 122

استلام: 2024/04/10، القبول: 2024/05/29

الناشر: مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث

© المؤلف

المقدّمة

إنّ فهم الفكر المادّي الحديث ضروري لمعرفة ما آل إليه الفكر العالمي بشكل عامّ، فهذا الفكر لم يكن ولادة مرحلة فكرية واحدة، بل كانت هناك عدّة مراحل تلاحقت تباعًا، وتلاقحت حتّى وصل إلى ما نحن فيه اليوم. وكانت الانطلاقة عصر النهضة في إيطاليا في القرن الرابع عشر، فهي البداية للفكر المادّي الذي يربط نفسه بالأرض ومحورية الإنسان، وليس يعني انطلاق الفكر المادّي نهاية الفكر الديني بقدر ما يعني أنّه فرض نفسه ليكون واقعًا فكريًّا جديدًا. إنّ عصر النهضة هو العصر الذي سادت فيه التجريبية وخفّت حدّة التحولات الفلسفية الكبرى، فهو عصر الاكتشافات والاختراعات التي مهّد لها تطوّر تقنيات النقل البحري مع رحلات كولومبوس (Columbus) وفاسكودي غاما (Vasco da Gama)، تلك الرحلات التي مهّدت للتوسّع الأوروبي ونشر معارفه إلى بلاد نائية عنه. [انظر: محمد زيعور، فرضية الإنسان في الفلسفة وعلم النفس، ص 89]

ومنذ تلك اللحظة بدأ إثبات الذات قبال الفكر الديني الذي لا ينتهي، سواء في أوروبا أو في النصف الثاني من الكرة الأرضية حيث الشرق.

شهد القرنان السابع عشر والثامن عشر مرحلة ما يسمّى عصر التنوير الذي برز فيه تيّارا العقلانية التي تدعو إلى معرفة الحقيقة اعتمادًا على مبادئ الفكر المجرّدة، وأبرز روّاده ديكارت (Descartes) وسبينوزا (Spinoza) وليبنتز (Leibniz)، والتجريبية التي اعتبرت أسس المعرفة تستند إلى الإدراك الحسّي. كما أظهر فلاسفة هذا العصر بروزًا في الرياضيات والفيزياء والسياسة. وكان هناك موقف حاسم من الدين أو التفكير الديني وضرورة الفصل بين ما هو من الدين وما هو خرافة، أو كما يقال اخضاع الدين للعقل. كما يعدّ هذا العصر عصر الاكتشافات العلمية، وصعود الطبقة المتوسّطة بفعل التطوّر الاقتصادي. إضافةً إلى ذلك فلقد وفّرت الليبرالية الصاعدة نظريةً وصمت العصر بوصمتها من خلال شعارها الشهير "دعه يعمل دعه يمرّ".

أمّا في الجانب السياسي وعلاقة الحاكم بالمحكوم فكان هناك قفزة هندسية لا تخفى؛ إذ إنّ انتشار مقولة الحقّ الطبيعي وفّرت الأجواء المناسبة لصياغات جديدة حول حقوق الإنسان وعلاقة الفرد بالسلطة، وتحوّل نظرية العقد الاجتماعي وتقسيم السلطات، ومراقبة الشعب لسلطة الدولة إلى واقع على الأرض. [انظر: المصدر السابق، ص 109 - 110]

يلخّص عبد الوهاب المسيري أسس الفلسفة المادّية بما يلي:

الإيمان بوحدة الطبيعة وخضوعها لقوانين ثابتة حتمية ذات نسق رياضي صارم لا يتغيّر تبعًا للخصوصيات، وتتحرّك تلقائيًّا، وبقانون السببية الحاكم على الزمان والمكان، والإيمان بعدم وجود علّة غائية لسيرورة الطبيعة، وعدم الإيمان بالغيبيات، فالطبيعة نظام كلّي تحتوي كلّ قوانين تفعيلها، فهي علّة ذاتها ومدركة لها بذاتها. [انظر: المسيري، الفلسفة المادّية وتفكيك الإنسان، ص 15 و16]

إنّ ظهور الفكر المادّي مرتبط بالموقف من نظرية المعرفة وإمكانية الوصول إلى الحقيقة والعلاقة بين الواقع والوهم. قال ماركس: «أمّا الأب الحقيقي للمادّية الإنكليزية فهو باكون. وهو يعتبر أنّ علم الطبيعة هو العلم الصحيح، والفيزياء القائمة على تجربة الحواسّ، هي القسم الأهمّ من علم الطبيعة. وإنكساغوراس وأصوله المتماثلة وديموكريتس وذرّاته هما مرجعاه المفضّلان. والحواسّ في مذهبه معصومة عن الخطإ، وهي ينبوع كلّ معرفة. والعلم علم تجريبي، ووظيفته إخضاع معطيات الحواسّ لطريقة عقلانية. والاستقراء والتحليل والمقارنة والملاحظة والاختبار كلّها هي الشروط الرئيسية للطريقة العقلانية. إنّ الخاصّة الأولى الرئيسة من الخصائص الملازمة في الأصل للمادّة هي الحركة، لا من حيث إنّها حركة آلية ورياضية وحسب، بل من حيث إنّها أيضًا، وبخاصّة، اندفاع، ومبدأ حياة، وتوتر، وعذاب ... واستنادًا إلى باكون عرض هوبس الفكرة التالية: إذا كانت حواسّنا هي مصدر كلّ معارفنا، فليست المفاهيم والأفكار والتصوّرات، سوى أشباح العالم المادّي المجرّد، بدرجات متفاوتة، من شكله الحسّي ... وبما أنّ حواسّنا لا تحسّ غير الأشياء المادّية، فإنّنا لا نعرف شيئًا عن وجود الإله، وجودي أنا فقط أكيد وثابت، وكلّ هوًى إنساني هو حركة آلية، تبدأ أو تنتهي. وأغراض البواعث هي الخير، والإنسان خاضع للقوانين التي تخضع لها الطبيعة نفسها، والقوّة والحرّية متماثلان.

لقد جعل هوبس من الباكونية نهجًا متناسقًا، ولكنّه لم يقدّم أدلّة أدقّ لدعم مبدئه الأساسي القائل إن أصل المعارف والأفكار هو في عالم الحواسّ، فجاء لوك وقدم الأدلّة لدعم مبدإ باكون وهوبس في مؤلّفه حول أصل الإدراك البشري» [أنجلس، الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية، ص 9]. وحينما يقال إنّ الفكر المادّي مرتبط بالحسّ فذلك لأنّه لا يؤمن بأنّ وراء عالم المحسوس بالحواسّ المعروفة عالمًا آخر؛ ولذلك ارتبط الفكر المادّي بالإلحاد، فالإلحاد والمادّية صنوان صعب افتراقهما.

ولقد تبلور في الفكر المادّي اتّجاهان رئيسيان هيمنا هيمنةً شبه كاملة على الساحة الفكرية الأوروبّية بشقّيها الغربي والشرقي، هما الفكر الليبرالي والفكرالماركسي.

المطلب الأوّل: الفكر الليبرالي

إنّ الليبرالية بوصفها نظامًا فكريًّا تبلور ليتحوّل إلى مذهب فلسفي أثّر تأثيرًا بالغًا في الخيارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الغرب. ولا يمكن إغفال هذا التحوّل الفكري الكبير في سيرورة الفكر ككلٍّ وتبيّن حقيقته. إنّ لأيّ سياق فكري يتحوّل إلى واقع معاش إرهاصاتٍ خاصّةً أثّرت في إنشائه، من السهل أن نسمّيها أسبابًا، ولكنّ هذه الأسباب كانت معاناةً فكريةً واحتياجاتٍ إنسانيةً أدّت شيئًا فشيئًا إلى تبلور فكر قد يكون حلًّا لمشكلة الإنسان في زوايا الأرض.

وفي سياق البحث نحتاج إلى إلقاء الضوء على المصطلح؛ ليفتح لنا باب فهم هذه المنظومة الفكرية. إنّ الترجمة العربية لمصطلح الليبرالية (Liberalism) هي "التحرّرية"، وهو مشتقٌّ من (Liberty) أي الحرّية.

ولكن مع وضوح الاصطلاح لغويًّا، يرى بعض المفكّرين الغربيين أنّ الليبرالية مصطلح عريض يلفّه الكثير من الغموض والإبهام. [انظر: سترومبرج، تاريخ الفكر الاوروبي الحديث، ص 337]

وكما يقول الطيّب بو عزّة: «مفهوم زئبقي ينفلت من التحديد والتعريف» [بو عزة، نقد الليبرالية، ص 23] وقد يكون الغموض بسبب أنّه لم يسبق وأن فكّر أحد بتحوّل حقٍّ شخصيٍّ في ممارسة الحياة العامّة والخاصّة إلى أيديولوجيا ذات أنساق معيارية معيّنة.

وفي "المعجم الفلسفي" عرّفت الليبرالية بأنّها «مذهب يقوم على احترام حرّية الفرد واستقلاله ومنحه أكبر قدر ممكن من الضمانات ضدّ أي تعسّف» [المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، ص 43]، وأمّا موسوعة لالاند فلقد ذكرت 4 شروحاتٍ للّيبرالية كلّها تشير إلى الاستقلال عن المؤثّرات الخارجية، وهي ليبرالية سياسية تعطي للمواطن أكبر قدر من الضمانات تجاه السلطة، وليبرالية تعبّر عن نفسها كمذهب فلسفي ينبذ شرطية الدين للاجتماع البشري، وليبرالية المذهب الاقتصادي الذي يرنو الى عدم تدخّل الدولة في العلاقات الاقتصادية، وليبرالية احترام استقلال الآخر. [انظر: لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ج 2، ص 725]

أمّا جون ستيوارت ميل فيعرّفها بأنّها «إطلاق العنان للناس ليحقّقوا خيرهم بالطرق التي يرونها طالما لا يحرمون الغير من مصالحهم أو لا يعوّقون جهودهم لتحقيق تلك المصالح، فكلّ فرد يعدّ أصلح رقيب على ثروته الخاصّة سواء أكانت هذه الثروة جسمانيةً أم فكرية أم روحية» [المصدر السابق، ص 22]. ومثل ذلك ما ورد عن توماس هوبز عندما قال إنّ الليبرالية تعني «غياب العوائق الخارجية التي تحدّ من قدرة الإنسان على أن يفعل ما يشاء» [عبد العزيز كامل، معركة الثوابت بين الإسلام والليبرالية، ص 34]. أمّا الموسوعة الميسّرة للأديان والمذاهب فلقد جاء فيها أنّ الليبرالية «مذهب رأسمالي ينادي بالحرّية المطلقة في الميدانين الاقتصادي والسياسي، ففي الميدان السياسي وعلى النطاق الفردي يؤكّد المذهب على القبول بفكر الغير وأفعاله، ولو كانت متعارضةً مع المذهب بشرط المعاملة بالمثل، وفي إطارها الفلسفي تعتمد الفلسفة النفعية والعقلانية لتحقيق أهدافها، وفي النطاق الاجتماعي هي: النظام السياسي المبنيّ على أساس فصل الدين عن الدولة، والتعدّدية الأيديولوجية والتنظيمية الحزبية والنقابية من خلال النظام البرلماني الديمقراطي بسلطاته الثلاث، وفي كفالة حرّية الفرد بما فيها حرّية المعتقد» [الموسوعة الميسّرة للأديان والمذاهب، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ج 2، ص 1135].

قال مراد وهبة: الليبرالية «نظرية اقتصادية تقوم على مبدإ المنفعة الشخصية، وأنّ المنفعة العامّة هي مجموع المنافع الشخصية، كما أنّها نظرية سياسية ترقى إلى مستوى الأيديولوجيا؛ إذ تزعم أنّ الحرّية أساس التقدّم، فتعارض السلطة المطلقة سواء كانت دنيويةً أو دينيةً» [مراد وهبة، المعجم الفلسفي، معجم المصطلحات الفلسفية، ص 538].

ولا أجد داعيًا إلى الاسترسال في تعداد تعاريف الليبرالية؛ إذ اتّضح من جملة التعريفات المذكورة مفهوم الليبرالية والمحور الذي تدور في فلكه الحرّية الفردية بكلّ مستوياتها وتمثّلاتها، وغايتها رفع كلّ ما يعتبر حاجزًا أمام تحقيق رغبات الإنسان وميوله، فالحرّية في الفكر الليبرالي انتقلت من مقولة تملّك الاختيار الفردي في ممارسة الحياة إلى مذهب فلسفي يؤدلج الحياة العامّة ويبلور جميع مناحي الحياة، ويكون ذلك من أشرف وظائف الدولة.

إنّ ما يفهم من الحرّية هو عدم استعباد الإنسان من قبل إنسان آخر، وأوضح مصداق لذلك هو قضيّة الاسترقاق والعبودية التي كانت تمارس في القرون المنصرمة، وحتّى الفقه الإسلامي عالج قضايا العبيد وكان مصطلحا "الحرّ" و"العبد" بارزين على السطح ضمن هذا المستوى فحسب. [انظر: النجفي، جواهر الكلام، ج 23، ص 249]

ثـمّ اسـتخدمته الشـعوب الـتي كانـت تريـد الخـلاص مـن الاسـتعمار المعـروف، وحـتّى أنّـه أصبح شـعارًا عنـد بعـض الأحـزاب في العالـم الثالـث. وأمّـا أن يكـون مفهـوم الحرّيـة ذا نسـق أيديولوجي يعـبّر عـن رؤيـة كونيـة معيّنـة للحيـاة، متجـاوزًا للقيـم المعنويـة والأديـان واضعًـا أسسًـا للحيـاة الاقتصاديـة والسياسـية والاجتماعيـة، فهـذا هـو الأمـر الجديـد الذي غلّـف المفهـوم. فالفـرد يتحرّر مـن أيّ شيء؟ لا مـن سـيّد يسـتعبده بعـد الأسر، ولا مـن اسـتعمار يجثـم على صـدر شـعبه، بـل يريد التحـرّر مـن القيـم الحاكمـة في المجتمعات، والتي تتعلّـق بالصواب والخطإ أو بتعاليم الديـن، فلا وجود لمعايـير ينسـجم الفـرد طبقهـا في تصرّفاتـه وسـلوكياته في حياتـه الفرديـة والجماعيـة، وما تلـك القيم إلّا أداة صاغهـا أفـراد متسـلّطون لإخضاع الآخريـن. [انظر: أحمـد أبـو زيـد، دلالات الليبرالية، جريـدة الحياة] ويمكـن ذكر أهمّ النقاط التي يتضمّنها الفكر الليبرالي:

- تقديس حرّية الفرد وجعلها في أعلى مستوًى من الاهتمام الوظيفي الحكومي والمعرفي.

- نبـذ جميـع مـا يمكـن أن يشـكّل عائقًـا أمـام رغبـات الإنسـان وميـوله، ومنهـا الديـن والثوابت الاجتماعيـة والعرفية.

- الليبرالية منظومة معرفية تشـكّل مذهبًا فلسـفيًّا له رؤيته الكونية المتجـرّدة عن الارتباط بالغيب.

- هـذه المنظومة تضمّنـت خياراتٍ اقتصاديةً واجتماعيةً وسياسـيةً ذات طابع اجتياحي اسـتحواذي.

المطلب الثاني: تأثير الفكر الليبرالي على الفكر الإنساني

ليـس مـن الصعـب اسـتنتاج أنّ الفكـر الليـبرالي مـن منجـزات العلمانيـة؛ لأنّ العلمانيـة وفّرت دعائـم الفكـر الليـبرالي حينمـا أدلجـت الإنسـان ضمـن مـا يسـمّى بـ"الإنسـانية" الـتي تتمركـز حـول الإنسـان وتجعلـه مركـز الكـون وسـيده بـلا منـازع فالانسـان مرجعيـة الكـون النهائيـة. وهـذا معنـاه ان الانسـان اصبـح موضـوع لايديولوجيـا مبتكـرة - ادلجـة الانسـان - الذي يعيـش التمركـز حـول ذاتـه رافضـا لاي قيـم وغيبيـات تفقـده اطـلاق العنـان لفعلـه، فالانسـان هـو مقيـاس كل شـئ غـير خاضـع لاي تعميـم او اطـلاق، ذو قوانـين نابعـة مـن ذاتـه.

وعندمـا يعيـش الانسـان مرجعيـة ذاتـه سـوف يتجاهـل المرجعيـات الاخـرى ويحّـول اي نسـق جمـاعي في سـلوكياته الى مـا يعـد نفعـا شـخصيا له، ومـن ذلـك الفئـة الاثنيـة الـتي ينتـمي اليهـا او امتـه، وتدريجيـا تحولـت الانسـانوية الى فلسـفة تسـمّت بالامبرياليـة، تلـك الفلسـفة الـتي تريـد

السيطرة على العالم وامتلاكه؛ بعد ان امتلكت اسباب القوة، ومن ثم جعل جميع البشر وسائل تحقيق غاياتها المادية [انظر: المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ج1، ص267].

حينما هيمن الفكر الليبرالي على الساحة المعرفية والفكرية في أوربّا والعالم الغربي، أضحى واقعًا معاشًا من قبل المؤمنين به، وطفق الجميع يعمل وفق ما يمليه ذلك الفكر، وتحوّل ذلك المفهوم الخاصّ من الحرّية الذي بلورته العلمانية (الليبرالية) - الذي يرفع جميع الموانع والقيود القيمية التي من الممكن أن تكون حاجزًا أمام رغبات الإنسان الطاغية - إلى نسق خاصّ جماعي من أجل السيطرة على الآخرين بعد أن انقلب كلّ شيء في العالم إلى مجال للاستثمار، فحركة الاكتشافات العلمانية التي تطوّرت لتصبح إمبرياليةً عاتيةً اشتركت فيها جميع دول أوربّا لإبادة ملايين الناس ونهب ثرواتهم، وما غزو الصهيونية لفلسطين إلّا تعبير عن العلاقة بين العلمانية والليبرالية؛ فالصهيونية في «جوهرها حركة داروينية علمانية حوّلت فلسطين والفلسطينيين الى مادّة استعمالية (تطرد خارج فلسطين)، بل حوّلت الجماعات اليهودية في العالم إلى مادّة من العقل المادّي المطلق. ولم يتوقّف مسلسل العنف الإمبريالي (العلماني) حتّى الآن ... سواء في حركة الاغتيالات أو الانقلابات أو مساندة النخب الحاكمة الفاسدة في العالم الثالث» [المصدر السابق، ص 119 و120].

فالإنسان الليبرالي اعتقد أنّه محور العالم، وكلّ هذا العالم مادّي وينبغي أن يتمّ استثماره من أجل نيل أعلى مراتب اللذّة الحسّيّة. إنّ الليبرالية باعتبارها الإنسان محور العالم تكون قد دخلت مدخلًا عقديًّا وأحلّت الإنسان محلّ الإله، أو إنّها جعلت من الإنسان هو الإله، ولكن أيّ إله؟ هو الإنسان الغربي المتسلّح بالمطلقات المادّية، مطلق البقاء للأصلح وصراع البقاء والفكر الدارويني، ومطلق خضوع الانسان لعلاقات الإنتاج وأدواته، وعدّت قيم السوق من العرض والطلب والاستهلاك هي القيم المعيارية في العلاقات الإنسانية.

ونحن في غضون البحث عن نتائج الليبرالية لا بدّ من القول إنّ الليبرالية عاشت مراحل من التطوّر، وكلّ مرحلة شهدت نتائج متطوّرةً وفق الثوب الذي ترتديه، فمرحلة الليبرالية الكلاسيكية ركّزت على الحرّية والمساواة في الشأن السياسي، ومجّدت شؤون الفرد وحقّه بالتصرّف الحرّ في الشأن الاقتصادي وحرّية التعبير في الحياة السياسية والحقوق الدستورية والشأن الديني، وفي تطوّر لاحق برزت على الساحة الغربية بدايات سبعينيات القرن العشرين النيوليبرالية التي نظّرت لتقليل تدخّل الدولة في الاقتصاد وتقليص القطاع العامّ لصالح القطاع الخاصّ. ويمكن القول إنّ هذه الليبرالية الجديدة تميّزت بأعلى مستوى من التطبيق

الرأسمالي، فهي رأسمالية أكثر قتامةً في تحكّمها بمصير الإنسان فردًا أو شعبًا، فعصرها هو عصر إبعاد الحكومات عن التدخّل في شؤون الاقتصاد، وجعل حركة السوق حرّةً دون إعاقتها بإجراءات من شأنها تقليل سلطة الطبقة الرأسمالية على مسارات تطوير رأس المال، وهذا ما يعني تقليص حجم الضوابط التي تحمي الطبقة الفقيرة، وإرهاق البيئة بمضاعفات الاحتباس الحراري وعدم الاهتمام بصحّة الفرد. إنّ السوق غير المقيّدة أفضت إلى انعدام التوازن في توزيع الثروات على المستوى العالمي، ونزل الخطّ البياني للدول الفقيرة كي يبيّن أنّها أصبحت أكثر فقرًا، بعكس الدول الغنيّة التي ازدادت ثرواتها، وموروست الضغوط من أجل فتح أسواق الدول النامية كي تستقبل حجم الانتفاخ السلعي المصدّر إليها من تلك الدول، وهذا ما كان ترجمةً صارخةً لمفهوم الانفتاح الاقتصادي. [انظر: الأمير، رأسمالية الليبرالية الجديدة (النيوبرالية)، ص 46]

ويمكن القول إنّ مسألة تدخّل الدولة في الاقتصاد تضعف وتقوى بحسب ما تمرّ به المجتمعات الغربية من ظروف اقتصادية أو سياسية، يقول الطيّب بو عزّة: «لقد شهدت المجتمعات الغربية خلال تلك اللحظة التاريخية مجموعة أحداث وتحوّلات جذرية في بنياتها السياسية ونظمها وطرائق إدارتها للمجتمع؛ إذ خلّفت الحرب العالمية الأولى واقعًا دوليًّا جديدًا شهد بروز ظواهر وقوًى جديدة، بفعل انتصار الثورة البلشفية عام 1917 ونشأة النظام الاشتراكي، ثمّ ظهور الأنظمة الفاشية لاحقًا؛ إذ برز شرط واقعي جديد تمثّل في بروز نظم، وإن كانت شهدت انحطاطًا على مستوى الحرّيات؛ فإنّها في المقابل أنجزت بفعّالية ملحوظة نقلاتٍ هائلةً في مجتمعاتها خاصّةً على مستوى التصنيع، وذلك بفعل السلطة الإطلاقية للدولة، وهيمنتها على إدارة العملية الاقتصادية» [بو عزة، نقد الليبرالية، ص 103].

وما يهمّنا حجم تأثير كلّ ذلك على الفكر والواقع المعاش، وبالتالي أثر الفكر الليبرالي ليس على الوعي الغربي فحسب، بل حتّى على الوعي الشرقي وبالأخصّ العربي والإسلامي، وأصبحت الفردية والمنفعة والاستهلاك عاملًا حاسمًا في خيارات الفرد اليومية والاستراتيجية، وشاعت مقولة الحرّية وفقًا للنمط الغربي في النصف الأوّل من القرن العشرين، وازدادت في النصف الثاني منه، ثمّ بلغت الأوج منذ بداية القرن الحادي والعشرين مع انتشار التراكم المعلوماتي الحاسوبي وخرافة نهاية التاريخ وتسليع الإنسان والعولمة التي تمثّل آخر منتجات الليبرالية.

إنّ العالم اليوم يعيش النتائج السيّئة للّيبرالية بكلّ مكوناتها وأقسامها التي جعلت العالم يفقد التوازن بين التطوّر التقني المادّي البحت الخالي من الأهداف الإنسانية القيمية، وبين متراكم التفاهة البشرية، فكلّما تطوّرت الآلة في المصنع زاد ذلك من تتفيه الإنسان وتحويله

إلى وجودٍ غير منتمٍ وغير شاعر، وجودٍ مركّب قلق كئيب مثقل بالاحتياجات المادّية، ساعيًا إلى سدّ منافذ جسده (المعروفة) بالالتصاق بأيّ شيء حسّي مادّي، مخلدًا إلى الأرض يأكل التراث أكلًا لمًّا، لا يرنو بطرفه إلى السماء، ولا يأبه بالمعنى والروح. فواقع إنسان اليوم الذي يعرف بأنّه الإنسان الاقتصادي هو واقع "أريد أن أعيش"، ويقصد بالعيش النشوز عن كلّ ما يمكن أن يكون مانعًا عن الاستمتاع الحسّي بأعلى مستوياته، فهو الإنسان الذي يدمن الأسواق باحثًا عن لذّة الاستهلاك المغرم بالدعايات التجارية، غلّفته الدهشة الأشيائية، فهو يريد كلّ شيء يعرض على شاشات التلفاز، التي تجعل أحلامه لا تنتهي، يريد بيوتًا فارهةً وليس بيتًا واحدًا، ومركباتٍ يشعر معها بالعلوّ الطبقي. إنّ مقولة "أريد أن أعيش" تختزل في داخلها كلّ معاني التنازل عن قيم البنى الفوقية للإنسان، مثل الجهاد والدفاع ومصلحة الوطن وحفظ حريم الأعراض، فيتنازل الإنسان الاقتصادي عن كلّ قيمة تحرمه الاستمرار في الشعور باللذّة، وبالتالي استطاع حرّاس الليبرالية بناء منظومة اقتصادية غير منتهية من خلال استغلال الأطفال والنساء والشباب خصوصًا بواسطة العرض السلعي، والبدن هو أسّ هذه المنظومة، فلا يفتأوا يخترعون ما يؤكل وما يلبس وما يركب وما يقتنى إرهاقًا لجيب الأب! حتّى التنمية أصبحت بمفهوم اليوم تدلّ على الرفاه الاستهلاكي وليس الرفاه القوامي ، والفرق بينهما أنّ الرفاه الاستهلاكي غاية في نفسه بينما الرفاه القوامي[1] رفاه غائي هدفه حفظ كرامة الإنسان وإقامة العدل بين الناس والوصول إلى حياة مطمئنّة يستطيع من خلالها الفرد أن يصبّ اهتمامه في الأمور التي تساعد على كماله المعنوي في الحياة، لا أن ينشغل بما يشارك به الحيوان.

لقد أشار شهريار زرشناس أنّه بظهور عالم جديد منذ القرن الرابع عشر تسيطر عليه النظرية الإنسانية ظهر الإنسان الجديد وهو الإنسان الحداثي، وأوضح أنّ الصورة المثالية لهذا الإنسان ماهية سمّيت "الإنسان البرجوازي"، وهو مفهوم جديد لا يشير أبدًا إلى انتماء طبقي إلى الطبقة البرجوازية، بل يشير إلى نمط ماهية معيّنة هي الإنسان الحداثي بطبيعته التاريخية المستحدثة، التي يمكن أن يكون عليها كلّ فرد ومن أي طبقة كان، سواء كان رأسماليًّا أو فلّاحًا أو عاملًا، فالإنسان البرجوازي هو صورة مثالية يحاول أن يصل إليها ويعيشها كلّ حداثي يعيش الهدف النفعي والاقتصادي النفسي في علاقته مع العالم ومع الآخرين. إنّه الحيوان الاقتصادي الذي لا يعرف حدودًا أمام منافعه الذاتية وأرباحه [انظر: زرشناس، الليبرالية، ص 18 و19]، ممّا قاد إلى تبلور العولمة بوصفها مفهومًا إشاريًّا إلى واقع جديد.

(1) نسبةً إلى الآية 67 من سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾.

ويمتاز الفرد البرجوازي بما يلي:

1- محورية جني الأرباح في نطاق الحيوان الاقتصادي.

2- النظرة الاستثمارية والأداتية لسائر الأفراد وللبيئة الاجتماعية، (سواء كانت عن وعي أو عن غير وعي)، وهي نزعة مبنيّة على رؤية تنمو من التكبّر، وهي راسخة في فكر الإنسان الحداثي وفي سلوكه وكلامه، وهي في الأساس جزء من عالمه الخاصّ الذي يعيشه.

3- الانهماك بالاستغراب والتورّط به أمر متجذّر في الجانب الإنساني من الفرد الحداثي وفي طبيعة علاقته مع الكون، وهو ما يكشف مدى ابتعاد هذا الإنسان عن الحقّ والحقيقة.

4- الانهماك بالبعد الرأسمالي واعتماده ثالوث المال والربح ورأس المال (وفق المنظور الحداثي والعلماني)، وهو ما يكشف عن نزول الإنسان إلى مستوى بات يعبّر عنه بـ"الحيوان الاقتصادي النفعي المتاجر".

5- اعتماد العقل الحداثي (العقل ذو النزعة الإنسانية) الذي غالبًا ما يكون رافضًا للقضايا الغيبية، ويميل للاستقلالية في التفكير؛ الأمر الذي يؤدّي إلى إنكار الولاية الإلهية بمختلف الأشكال والأساليب؛ إذ يتباهى بإعراضه عن الحقّ والحقيقة. وهو أشبه ما يكون بالنزعة الفكرية التي اعتمدها الفلاسفة في عصر التنوير؛ إذ يؤكّد مخالفتها ومجابهتها للتعاليم الدينية، وكتعريف كانط بالتنوير؛ إذ يعدّه معادلًا لنبذ العبودية لأيّ موجود بمن فيهم الله، أو كالآراء الفلسفية والأيديولوجية التي اعتمدها الحداثيون والكثير من أتباع نظرية ما بعد الحداثة المعاصرين» [المصدر السابق، ص 20].

المطلب الثالث: الفكر الماركسي

الماركسية نظرية شاملة للواقع نظّرت للحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية طبقًا لما يدّعى الديالكتيك المادّي الجدلي القائم على التناقض الداخلي للأشياء في عالم الطبيعة، ورفعت شعار الاشتراكية العلمية طبقًا لذلك؛ ونتيجة لذلك يعبر عن الماركسية بالمادّية الجدلية. وهي علمية؛ لأنّها تدرس القوانين التي تحكم الطبيعة من قوانين الفيزياء وغير ذلك وتطبيقها على المجتمع، فتوصف آنذاك بالمادّية التاريخية. [انظر: جورج بوليتزر و جي بيس موريس كافين، أصول الفلسفة الماركسية، ج 1، ص 13 و14]

فكما أنّ التناقض يحكم عالم الطبيعة فهو يحكم على المجتمع، فتتطوّر المجتمعات بسبب ذلك، ويحصل الانتقال الطبقي الحتمي طبقًا لشروط معيّنة. يقول ستالين: «الماركسية هي العلم الذي يقوم بدراسة قوانين تطوّر الطبيعة والمجتمع، وهي العلم الذي يدرس ثورة الطبقات المضطهدة المستغلّة، كما أنّها العلم الذي يصف لنا انتصار الاشتراكية في جميع البلدان، وأخيرًا هي العلم الذي يعلّمنا بناء المجتمع الشيوعي» [المصدر السابق، ج 1، ص 15].

إنّ السلبيات التي عاشها المجتمع الأوربّي في عهد انحدار الإقطاعية حثّت بعض المفكّرين على الكتابة حول الاستغلال والاضطهاد وضرورة تغيير الواقع، فنادوا بالعدالة الاجتماعية والمساواة في الملكية والتوزيع العادل للثروات، وشاعت فكرة الشيوعية السوائية. وكتب الإنكليزي توماس مور (Thomas More) كتابه "يوتوبيا" التي يصف فيها الحياة المثالية في جزيرة وسط المحيط، فالحياة في هذه الجزيرة لا يوجد فيها ملكية خاصّة ولا نقود، والثروة ينبغي أن تكون في أيدي الجميع، والأعمال تجري بشكل جماعي، وما ينتجه سكّان الجزيرة يوضع في مخازن عامّة يأخذ كلّ واحد منها بحسب حاجته مجّانًا، كما أنّ العمل يكون دون مقابل. وكلمة "يوتوبيا" معناها "المكان الذي لا وجود له"، أي أنّه مكان خلقه خيال الكاتب، وبسبب الأفكار التي سطّرها في كتابه؛ ظهر له أتباع ونتج عن ذلك الاشتراكية الطوباوية. وتوصف عادة الاشتراكية الطوباوية بأنّها الاشتراكية غير العلمية في مقابل الاشتراكية العلمية التي ظهرت على يد أنجلز (Engels) وماركس (Marx) ولينين (Lenin). [مينايف، نشوء الاشتراكية العلمية ومبادئها، ص 13]

وجرت محاولة ثانية لعرض حالة مجتمع يعيش بعيدًا عن الملكية الخاصّة، وذلك في القرن السابع عشر من قبل الإيطالي تومازو كامبانيلا (Tommaso Campanella) في كتابه "مدينة الشمس". [انظر: مينايف، نشوء الاشتراكية العلمية ومبادئها، ص 13]

إنّ ما جاء في هذين الكتابين مجرّد أحلام عاشت في الخيال الخصب للكاتبين، ولم يظهرا للعالم أي خطوة في اتّجاه تنفيذ سمات المجتمع المتمنّى. وخلال القرن الثامن عشر كانت هناك محاولات لتقديم مشاريع لتحقيق فكرة المساواة في الملكية وبقية الأفكار التي نادى بها توماس مور وكامبانيلا، وكان ذلك على يد الكاتبين الفرنسيين موريلي (Morelli) وجان موليه وجبريل مابلي. [انظر: المصدر السابق، ص 17]

وبحلول القرن التاسع عشر كثرت الإشكالات على الاشتراكية الطوباوية التي لم تنتقل

إلى تقديم حلّ علمي للنظام الاجتماعي، ولكنّها بقيت في الإطار التنظيري[2]، وإلى ذلك أشار ميناييف إلى أنّ الطوبائيين نقدوا النظام الرأسمالي بقوّة، ولكنّهم لم ينتقلوا من مرحلة النقد والتظلّم إلى مرحلة عملية يستطيعون من خلالها تشريح طبيعة النظام الرأسمالي علميًّا وتطوّراته، فقصروا عن وضع المعالجات الكفيلة بتغييره، وغفلوا عن الطبقة العاملة المنظّمة والواعية التي تمثّل شرطًا في التطوّر القادم بواسطة التغيير الثوري، فهم رأوا فقط الفقر بوصفه فقرًا - كما يقول ماركس - وتمنّوا أن يتغيّر تلقائيًّا [انظر: ميناييف، نشوء الاشتراكية العلمية ومبادئها، دار التقدم، موسكو، ص40].

وعلى أساس ذلك ولدت الماركسية بوصفها ردّ فعل قويّ تجاه الليبرالية، حينما كتب كارل ماركس كتابه المعروف "رأس المال"، الذي كان وصفًا للنظام الراسمالي وتطوّره ومستقبله، وتناول فيه السلع والأجور وطرح فيه نظريته حول القيمة العمّالية للسلع كبديل للقيمة الاستخدامية والتبادلية لها. [انظر: كارل ماركس، رأس المال، ج 1، ص 53]

وكان كلّ من ماركس وأنجلز متأثّرين بفلسفة هيجل الذي كان قد هيمن على الفلسفة الألمانية بشكل تامّ [انظر: محمود عثمان، الفكر المادّي الحديث وموقف الإسلام منه، ص 67]، على أنّ ماركس لم يكمل إعجابه بهيجل واستقلّ عنه معارضًا فكرة أنّ الوعي سابق للمادّة، بل إنّ المادّة هي التي تخلق الوعي. إنّ إنجلز أكثر تأثيرًا في إنشاء الفكر الماركسي في ثوبه المعروف، فعلى الرغم من انتمائه لعائلة ثرية مالكة للمصانع، إلّا أنّه انتفض بسبب رؤيته للاستغلال البشع الذي يتعرّض له العمّال من قبل أصحاب المصانع، وهاله ما شاهده من ظروف النساء والأطفال والمراهقين العاملين في لندن. فكان يكتب المقالات الناقدة للأغنياء ويدافع عن الفقراء والعمّال. وكان ماركس هو الذي ينشر تلك المقالات ونتج عن ذلك اتّفاق فكري بين الاثنين تبلور في ما يسمّى "البيان الشيوعي" [راجع: ماركس، أنجلز، البيان الشيوعي]، وكتاب "الأيديولوجية الألمانية" [راجع: ماركس، أنجلز، الأيديولوجية الألمانية، ص 19]. وكانا رائدي الحركة الاشتراكية ولا سيّما الاشتراكية العلمية. [انظر: ميناييف، نشوء الاشتراكية العلمية ومبادئها، ص 19]

وغير خفيٍّ أنّ الثورة الصناعية كانت عصرًا للأغنياء وأصحاب رؤوس الأموال الذين ترجموا الصيغة الأولى للإمبريالية في الواقع. إنّ البؤس الذي عانته الأغلبية الساحقة من

(2) ولكن تبيّن بعد ذلك وللشيوعيين أنفسهم أنّ الماركسية ما هي إلّا فكر طوباوي رغم أنّهم انتقلوا إلى الممارسة على أرض الواقع، وإنّ صفة العلمية التي ألصقوها بأيديولوجيتهم ما استطاعت بناء نظام اجتماعي حقيقي يلبّي طموحات الإنسان الذي خضع لهم ضمن بقعة الممارسة (الاتّحاد السوفيتي السابق).

العاملين ولّد فكرًا مناوئًا للإمبريالية اعتمد على فكرة مادّية مضادّة للفكر المادّي الليبرالي، وهي فكرة جدلية قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج، إنّ تطوّر قوى الإنتاج رهينة بمستويات وسائل الإنتاج وتطوّرها الحتمي الذي يبلور نوع علاقات الإنتاج، فإذا امتلك وسائل الإنتاج من أرض وأبنية تجميع وتسويق ومصانع فرد واحد، تتحوّل علاقات الإنتاج إلى سيطرة الفرد وخضوع الفلاحين أو العمال؛ فهي علاقة خضوع وعبودية، أمّا إذا كان المجتمع بأكمله يمتلك وسائل الإنتاج؛ فسوف تتطوّر قوى الإنتاج تبعًا لذلك، وتبلور علاقات إنتاج تعاونية تعمّها المساواة والحرّية وتختفي حالة السيّد والعبد. إذن هناك تطور وعلاقات جدلية مستمرّة بين وسائل الإنتاج وعلاقات الإنتاج، فكلٌّ منها يؤثّر في الآخر، ونتيجة هذا التفاعل نشوء طبقة جديدة على أنقاض الطبقة السابقة. إنّ هذا ما اقتضته المادّية التاريخية التي صاغها ماركس وأنجلز طبقًا للمادّية الديالكتيكية الهيغلية في تفسير الظواهر الاجتماعية، وفي ذلك قال ماركس في كتابه "رأس المال": «إنّ طريقتي الديالكتيكية من حيث أساسها لا تختلف عن طريقة هيغل وحسب، بل وتناقضها بصورة مباشرة. وبالنسبة لهيغل فإنّ عملية التفكير التي يحولها حتّى تحت اسم الفكرة إلى ذات مستقلّة، هي خالقة الواقع الذي لا يشكّل سوى مجرّد مظهر لتجلّيها الخارجي. أمّا عندي فعلى العكس، فالمثالي ما هو إلّا مادّي منقول إلى رأس الإنسان ومحوّل فيه» [ماركس، رأس المال، ج 1، ص 27].

إنّ فهم النظرية الماركسية يرتبط بشكل كبير بفهم المقصود من الديالكتيك، تلك المفردة التي اعتمدها هيغل (Hegel) في نظريته المعروفة. [انظر: ستالين، المادّية الديالكتيكية والمادّية التاريخية، ص 5]

إنّ الديالكتيك تعني المجادلة، وهي من الصناعات الخمس المعروفة في علم المنطق والتي تشمل: البرهان والجدل والخطابة والشعر والمغالطة، قال ستالين (Stalin): «تأتي كلمة ديالكتيك من (Dialego) الإغريقية، وتعني المجادلة، المناقشة. في العصور الغابرة كان الديالكتيك فنّ التوصّل إلى الحقيقة عن طريق كشف التناقضات في مجادلة الغريم والتغلّب على هذه التناقضات. كان ثمّة فلاسفة في العصور القديمة اعتقدوا أنّ كشف التناقضات في الفكرة وتصادم الأفكار المتناقضة كان أفضل وسيلةٍ للتوصّل إلى الحقيقة. هذه الطريقة الديالكتيكية في الفكر امتدّت فيما بعد إلى الظواهر الطبيعية، وتطوّرت إلى الأسلوب الديالكتيكي لتفهّم الطبيعة، الأسلوب الذي يعتبر الظواهر الطبيعية في حركة دائمة وتطرأ عليها تغييرات دائمة، ويعتبر تطوّر الطبيعة نتاجًا لتطوّر الظروف في الطبيعة نتيجة التفاعل المتبادل بين قوى الطبيعة المتضادّة. إنّ الديالكتيك في جوهره هو النقيض المباشر للميتافيزيقا» [المصدر السابق، ص 6].

استفادت الماركسية من الديالكتيك نظرية اجتماعية مفادها أنّ هناك صراعًا طبقيًّا دائمًا بين الطبقات في المجتمع يحدّده الزمان والمكان، وفي كلّ مرحلة هناك طبقة واحدة تنتصر بفعل السائد من علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج، وإن طبقة البروليتاريا هي المنتصرة في ظلّ إخضاع النظام الاجتماعي والسياسي للاشتراكية وديكتاتورية الطبقة العاملة وصولًا للشيوعية.

المطلب الرابع: تأثير الفكر الماركسي على الفكر الإنساني

أثارت الماركسية زوبعةً فكريةً في العالم، واحتلّت زاويةً من الفكر الإنساني لا تخفى تأثيراتها على جميع أنماط البني الاجتماعية والسياسية والعسكرية واستراتيجيات القوى العظمى في العالم.

إنّ الثورة البلشفية في روسيا القيصرية هي من نتائج هذا الفكر ومن تبنّاه من قادة الحزب الشيوعي، تلك الثورة التي غيّرت وجه العالم وجعلته ينقسم انقسامًا حادًّا - ولا سيّما بعد الحرب العالمية الثانية - إلى معسكرين شرقي اشتراكي وغربي رأسمالي، وتبلور الصراع عسكريًّا إلى حلفي وارشو بقيادة الاتّحاد السوفيتي وحلف الناتو بقيادة الولايات المتّحدة.

كان للفكر الماركسي دور لا يخفى في الإلحاد أو الفكر المادّي عمومًا؛ فلقد قدّم نفسه على أنّه ممثّل العلم والتفكير العلمي البحت، وباقي الأفكار تكون من قبيل الخرافات والأساطير التي تخدّر الإنسان عن المطالبة بحقوقه.

ومن نافل القول أنّ الماركسية أثّرت في نظرية المعرفة، وما زال تأثيرها قائمًا إلى اليوم على الرغم من فشل النظرية عمليًّا في الاتّحاد السوفيتي الذي انتهى بدوره مع نهاية تلك التجربة. فالديالكتيك ليس تعبيرًا عن اختلاف وجهات نظر فحسب، بل هو أمر كامن في صميم الموجودات، فما من شيءٍ إلّا وهو يحمل نقيضه في داخله، فهيجل حينما ادّعى ذلك فهو في الواقع قد ابتدع قانونًا عامًّا يختلف عمّا درج عليه الفكر البشري منذ أن وجد. [انظر: الصدر، فلسفتنا، ص 267]

فكما أنّ مبدأ عدم التناقض يمثّل قوام علم المعرفة البشرية والفهم، فإنّ الفلسفة المثالية الهيجلية اعتبرت مبدأ التناقض أساس الوعي، فالوجود عبارة عن مجموعة تناقضات ضمن مراحل (الإثبات - النفي - نفي النفي).

والنقطة الأخرى التي آمن بها هؤلاء أنّ الوعي والفكر هو انعكاس للواقع، وأنّ التناقضات

في الفكـر انعـكاس للتناقضـات الـتي يحويهـا الواقـع، وهـذا مـا عـبّر عنـه لينـين (Lenin) بقـوله: «فجـدل الأشـياء ينتج جـدل الأفكار، وليـس العكس» [جورج بوليتـزر، المادّيـة والمثاليـة في الفلسـفة، ص 83].

فالحقيقـة في الفكـر الماركـسي تنمـو وتتطـوّر طبقًـا لتطـوّر الواقـع المحكـوم بقانـون التناقـض الداخـلي، فالفكـرة الواحـدة منطبـق للصحّـة والخطـإ في الوقـت نفسـه، وكلّمـا حكمـت على قضيّـة بأنّهـا حـقٌّ ومعـبّرةٌ عـن الواقـع فـهي تحمـل جانـب الخطـإ الحتـمي الخـاصّ الذي يمثـل صـورة التناقـض المسـؤول عـن النمـوّ والتكامـل.

ولكـن مـا قلنـاه حـول فشـل التطبيـق لا يعـني انتهـاء تأثـير الماركسـية في السـاحة الفكريـة، بـل مـا زال تأثيرهـا قائمًـا ولـو بتغيـير أسـلوب الطـرح، وتغيـير بعـض المقـولات الـتي لـم تعـد مناسـبةً لعالـم اليـوم. انظـر: تورمـي، تاونزنـد، المفكّـرون الأساسـيون مـن النظريـة إلى مـا بعـد الماركسـية، ص 322 - 330]

وليسـت نكبـة سـقوط التجربـة في الاتّحـاد السـوفييتي أوّل إنـاء كـسر في الماركسـية، فلقـد سـبق وأن خفتـت حـدّة النظريـة الماركسـية في نهايـات القـرن التاسـع عـشر، وعورضـت مـن قبـل برنشـتاين وتروتكـسي وغيرهـم الذيـن عارضـوا التغيـير العنـفي الثـوري في الوصـول إلى الاشـتراكية وأبدلوهـا بنظريـة التغيـير التدريـجي، فالظـروف الـتي عاشـها ماركـس وأنجلـز قـد تغـيّرت ولـم يتحقّـق مـا افترضـوه مـن انسـحاق الطبقـة العاملـة وازديـاد عذاباتهـا، فالعمّـال تحسّـنت ظروفهـم المعيشـية وحسّـنت الرأسـمالية طريقـة تعاملهـا معهـم، وآتـت النقابـات أكلهـا حينمـا نجحـت بفـرض ظـروف للعمـل تغيـب فيهـا عوامـل الظلـم والبطـش. ولكـن مـع ذلـك قـام لينـين بإدخـال تعديـلات معرفيـة جديـدة على النظريـة، ونجـح بإقامـة ثـورة دمـج فيهـا البروليتياريـا مـع الفلّاحـين. إذن هنـاك عمليـة قبـض وبسـط في التعامـل مـع النظريـة الماركسـية وفشـل تجربـة في مـكان مـا لا يعـني مـوت النظريـة، فالبيـان الشـيوعي الذي أطلقـه ماركـس وأنجلـز وإن اخفـق في قـراءة المسـتقبل في بعـض البنـود، ولكنّـه أثبـت تحقّـق قراءتـه حينمـا نجـح في حـدس أنّ تراكـم رأس المـال الداخـلي سـيقود حتمًـا إلى نظـره خـارج الحـدود؛ ممّـا يفـضي إلى سـيطرة وهيمنـة على ثـروات الشـعوب، وبـروز الإمبرياليـة في أبشـع صورهـا.

لقـد أعاد الماركسـيون عمومًـا قـراءة الماركسـية بمـا ينسـجم مـع الظـروف المحلّيـة في كلّ مـكان تواجـدوا فيـه، في إصرار على التمسّـك بالماركسـية مـع بعـض التغيـير في الإكسسـوار، وعدّوهـا إعادة تقييـم ومراجعـة.

ومـن هنـا يبـدو أنّ التدافـع بـين الفكـر الليـبرالي والماركـسي لا يـكاد يجـد له نهايـة قريبـة؛

لأنّ هناك بونًا شاسعًا بين الفكر الليبرالي والفكر الماركسي، ويمكن القول باستحالة التقاء مساحات التفكير والتنظير بين الطرفين، ممّا يؤدّي إلى حتمية بقاء الصراع والتنازع بين الطرفين. إنّ الليبرالية أرست مرتكزاتٍ أساسيةً في فكرها، فهي تقدّس الحرّية الفردية، وتعلي شأن المصلحة الذاتية، واحتضنت نظريةً بيولوجيةً مفادها البقاء للأقوى، والمجتمع المتقدّم هو المجتمع الخاضع للقويّ واستبعاد الضعيف، وأمّا اقتصاديا فاتّبعت المنافسة الحرّة وعدم تقييد النشاط التجاري. [انظر: طلال حامد خليل، المرتكزات الفكرية لليبرالية.. دراسة نقدية، مجلّة دفاتر السياسة والقانون، العدد 15]

وأين من ذلك النظرية الماركسية التي تقدّم المصلحة الاجتماعية على الفردية ونوازعها، بل كلّ تنظيرها العلمي في مادّيتها الجدلية التاريخية قائمًا على أساس التطوّر الاجتماعي وصولًا إلى المجتمع الشيوعي في آخر المطاف، وهذا رهن بالابتعاد عن الفردانية خلال تلك الرحلة الطويلة، والهيمنة على وسائل الإنتاج من قبل الحكومة في مرحلة الاشتراكية، وتقييد كلّ نشاط صناعي وتجاري بقيود تأميمية، ولا ينال الفرد المنتِج إلّا كفاف العيش من الضروريات.

تؤمن الماركسية إيمانًا كاملًا بأنّ الرأسمالية تحفر قبرها بيديها من خلال البروليتاريا، فكلّما نمت الصناعة والتجارة الكفيلان بتطوّر المجتمع الرأسمالي الليبرالي، عنى ذلك نموّ الطبقة العاملة التي تغاير الرأسمالية في الغاية، وبالتالي زوال الرأسمالية ينمو من الداخل الرأسمالي [انظر: مينايف، نشوء الاشتراكية العلمية ومبادئها، ص 70]، فطبيعة العلاقة بين البروليتاريا والرأسمالية هو الصراع والتساحق. تعاني الطبقة العاملة من الاستغلال، وتتمتّع الطبقة الرأسمالية بالربح الناتج عن عمل أولئك، فهي علاقة مستغِلٍّ ومستغَلٍّ، وخطّت المادّية التاريخية بقلمها الديالكتيكي التنظيري قدر حتمية الثورة الدائمة ضدّ الفكر الليبرالي وأداته الرأسمالية ولا توجد أيّ فرصة للالتقاء.

الخاتمة

تمّ التوصّل من خلال البحث إلى ما يلي:

1- الفكر المادّي لم يكن ولادة مرحلة فكرية واحدة، بل كانت هناك عدّة مراحل تلاحقت تباعًا وتلاقحت حتّى وصل إلى ما نحن فيه اليوم.

2- شهد القرنان السابع عشر والثامن عشر مرحلة ما يسمّى "عصر التنوير" الذي برز فيه تيّارا العقلانية التي تدعو إلى معرفة الحقيقة اعتمادا على مبادئ الفكر المجرّدة، وأبرز روّاده ديكارت وسبينوزا وليبنتز، والتجريبية التي اعتبرت أنّ أسس المعرفة تستند إلى الإدراك الحسّي.

3- أنّ ظهور الفكر المادّي مرتبط بالموقف من نظرية المعرفة وإمكانية الوصول إلى الحقيقة والعلاقة بين الواقع والوهم.

4- ارتبط الفكر المادّي بالإلحاد، فالإلحاد والمادّية صنوان يصعب افتراقهما.

5- أنّ الليبرالية كمنتظم فكري تبلور ليتحوّل إلى مذهب فلسفي أثّر تأثيرًا بالغًا في الخيارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الغرب.

6- الحرّية في الفكر الليبرالي انتقلت من مقولة تملّك الاختيار الفردي في ممارسة الحياة إلى مذهب فلسفي يؤدلج الحياة العامّة، ويبلور جميع مناحي الحياة، ويكون ذلك من أشرف وظائف الدولة.

7- اعتقد الإنسان الليبرالي بأنّه محور العالم، وكلّ هذا العالم مادّي وينبغي أن يتمّ استثماره من أجل نيل أعلى مراتب اللذّة الحسّية.

8- أنّ الليبرالية باعتبارها الإنسان محور العالم تكون قد دخلت مدخلًا عقديًّا، وأحلّت الإنسان محلّ الإله، أو أنّها جعلت من الإنسان إلهًا.

9- ولدت الماركسية بوصفها ردّ فعل قويًّا تجاه الليبرالية، حينما كتب كارل ماركس كتابه المعروف "رأس المال"، الذي دعا فيه إلى اشتراكية وسائل الإنتاج والرفاه للجميع.

10- هناك تطوّر وعلاقات جدلية مستمرّة بين وسائل الإنتاج وعلاقات الإنتاج، فكلٌّ منها يؤثّر في الآخر، ونتيجة هذا التفاعل نشوء طبقة جديدة على أنقاض الطبقة السابقة.

11- استفادت الماركسية من الديالكتيك نظرية اجتماعية مفادها أنّ هناك صراعًا طبقيًّا دائمًا بين الطبقات في المجتمع يحدّده الزمان والمكان، وفي كلّ مرحلة هناك طبقة واحدة تنتصر بفعل السائد من علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج، وأنّ طبقة البروليتاريا هي المنتصرة في ظلّ اخضاع النظام الاجتماعي والسياسي للاشتراكية وديكتاتورية الطبقة العاملة وصولًا للشيوعية.

12-كان للفكر الماركسي دور لا يخفى في الإلحاد أو الفكر المادّي عمومًا؛ فلقد قدّم نفسه على أنّه ممثّل العلم والتفكير العلمي البحت، وباقي الأفكار تكون من قبيل الخرافات والأساطير التي تخدّر الإنسان عن المطالبة بحقوقه.

13- لقد آمن الجدل الهيجلي بقضيّة التناقض، ضاربًا بذلك ما قام عليه الفكر البشري وما يسمّى المنطق الكلاسيكي والمتمثّل بمبدإ عدم التناقض.

14- أنّ كلًّا من الفكرين الليبرالي والماركسي ما زال تأثيرهما قائمًا في الساحة المعرفية؛ ولذلك نشأ ما يدعى الليبرالية الجديدة وما بعد الماركسية.

قائمة المصادر

أبو زيد، أحمد، دلالات الليبرالية، جريدة الحياة، 2004 م.

الأمير، فؤاد قاسم، رأسمالية الليبرالية الجديدة (النيوبرالية)، دار الغد، مصر، 2019 م.

أنجلز، فريدريك، الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية، دار التقدّم، موسكو، 2006 م.

لالاند، أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب: خليل أحمد خليل، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، 2008 م.

بو عزّة، الطيّب، نقد الليبرالية، تنوير للنشر والإعلام، القاهرة، الطبعة الأولى، 2013 م.

زرشناس، شهريار، الليبرالية، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، العتبة العبّاسية المقدّسة، الطبعة الأولى، 2017 م.

زيعور، محمد، فرضية الإنسان في الفلسفة وعلم النفس (من العهد اليوناني إلى العهد المعاصر)، دار الهادي، بيروت، الطبعة الأولى، 2007 م.

ستالين، جوزيف، المادّية الديالكتيكية والمادّية التاريخية، ترجمة: حسقيل قوجمان.

سترومبرج، دونالد، تاريخ الفكر الأوروبي الحديث، ترجمة: أحمد الشيباني، دار القارئ العربي للنشر والتوزيع والاعلان، الطبعة الثالثة، 1994 م.

الصدر، محمدباقر، فلسفتنا، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، الطبعة الثالثة، 2009 م.

عبد العزيز كامل، معركة الثوابت بين الإسلام والليبرالية، مجلّة البيان، 2008 م.

ماركس، كارل، رأس المال، ترجمة: فهد كم نقش، دار التقدّم، موسكو، 1985 م.

المسيري، عبد الوهاب، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، 2002 م.

المسيري، عبد الوهاب، الفلسفة المادّية وتفكيك الإنسان، دار الفكر، دمشق، 2007 م.

مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، القاهرة، دار الوثائق، 1983 م.

الموسوعة الميسّرة للأديان والمذاهب، الندوة العالمية للشباب الإسلامي.

مينايف، نشوء الاشتراكية العلمية ومبادئها، دار التقدّم، موسكو.

وهبة، مراد، المعجم الفلسفي، معجم المصطلحات الفلسفية، دار قباء الحديثة للطباعة

والنـشر والتوزيـع، القاهـرة، الطبعـة السـابعة، 2007 م.

النجـفي، محمدحسـن، جواهـر الـكلام، تصحيـح وتحقيـق وتعليـق: رضـا أسـتادي، المكتبـة الإسـلامية، الطبعـة السادسـة، 1404 هـ.

جـورج بوليـتزر وجي بيـس موريـس كافـين، أصـول الفلسـفة الماركسـية، ترجمـة: شـعبان بـركات، منشـورات المكتبـة العصريـة، بـيروت، 2009 م.

ف. كيللي، م. كوفالزون، المادّية التاريخية، ترجمة: أحمد داود، دار الجماهير، دمشق.

عثمـان، محمـود، الفكـر المـادّي الحديـث وموقـف الإسـلام منـه، مكتبـة الأنجلـو المصريـة، القاهـرة، 1977 م.

ماركس، أنجلز، البيان الشيوعي، منشورات الجمل، ألمانيا، 2016 م.

ماركس، أنجلز، الايديولوجية الالمانية، ترجمة: فؤاد أيوب، دار دمشق.

بوليتزر، جورج، المادّية والمثالية في الفلسفة، ترجمة: إسماعيل المهدوي.

طـلال حامـد خليـل، المرتكـزات الفكريـة للّيبراليـة.. دراسـة نقديـة، مجلّـة دفاتـر السياسـة والقانـون، العـدد 15، 2016 م.

تـورمي، سـايمون، تاونزنـد، جونـز، المفكّـرون الأساسـيون مـن النظريـة إلى مـا بعـد الماركسـية، ترجمـة: محمـد عنـاني، مركـز المحروسـة للنـشر والترجمـة، الطبعـة الأولى، 2016 م.